أقواس - المدارس المستقلة والإبداع (3/3)

في العام الفائت وفي أثناء إعدادنا لدروس تتضمن معايير المجلس الأعلى، وقع اختيارنا على أهم قصائد المتنبي "واحر قلباه" وانتقينا منها ثلاثة عشر بيتاً، تمثّل عتاب المتنبي لسيف الدولة الحمداني، واعتداده بنفسه، وعزمه على الرحيل، وفي أثناء معالجة القصيدة دونّا معنى "مرهف" في البيت:

ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج البحر يحتدم

على أنه "فرس متقارب الأضلاع" بحسب المعجم الوسيط، وفاتنا في زحمة العمل الرجوع الى معاجم أوفى، خصوصاً وأن المعنى الموضوع يناسب السياق في النص. تفاعل الطلاب مع النص من خلال عدة مناشط مبتكرة في القاء النص، وقراءة قصته، وغنائه في لحن بدوي "المنكوس"، وبدا علينا الرضا في التوفيق باختيار النص.

ولكن حدثاً ما أربكني وأفرحني في الوقت ذاته، حين اكتشف أحد الطلاب خطأً في معنى مرهف اذ هو السيف لا الفرس، عرف الطالب ذلك عندما أحبّ النص، ولم يكتف بالأبيات المختارة في ملزمته، فعاد الى الديوان واكتشف معنى آخر للمفردة قصده الشاعر.

ارتبكت كما يرتبك أي مدرس يحسب طلابه أنه المصدر الوحيد والصحيح للمعلومات، وفرحت بنجاح هذا النص في بناء علاقة حميمة مع الطلاب الذين أحبوه وتقربوا منه وقرأوا ملامحه جيداً، فأضافوا اليه مما في بيئتهم، لا نصاً بارداً يطلب منهم حفظه جيداً، ليكون ذلك دليلاً نحو النجاح. هذه الحادثة وحوادث أخرى تعثرنا بها، وعثرنا بعدها على استعدادات هائلة وطاقات كامنة لم تستثمر، ففرحنا بأصحابها أيما فرح، كون هذه الأمة لها زالت بخير، تعطي بسخاء على الرغم من النوائب التي تكاثرت.

تعيش الأمم جميعها مراحل المد والجزر، وفي كلّ انتكاسة تتكئ الأمم العظيمة على وجعها وتنهض، وتصعد سلّم الأمل، تتلمس في صعودها الجديد مقاومة الموت وأسباب التقدم، ولئن استطاعت الأمة كلّ الاستطاعة ألاّ تموت ـ بحسب مفكر عربي بداية القرن العشرين ـ فان دربها الى الحياة مازال محفوفاً بالمصاعب بعد مائة عام من كلام ذلك المفكر.

في كلّ نهوض تراهن الأمم على الانسان، وتجد في التعليم الميدان الصالح لتمثل استراتيجياتها، ولنا في الدول الناهضة بعد انتكاسة الحرب العالمية الثانية (ألمانيا ـ اليابان) دليل، على أن الأمم العظيمة تقاوم الفناء.

وعلى الرغم من المزاج المتفائل الذي سرى في جسد الأمة بعد الحرب العالمية الثانية، كمعطى لنهوض فئات اجتماعية فاعلة، فان نكسة الستينيات وتداعياتها جفّفت ينابيع الحلم الواعد. وأرخت سدولها بالهموم والكآبة على

الحياة العربية، الكآبة التي تسربت الى الألوان والأصوات والقصيدة والأغنية، وبات استمراء الحزن ديدن الخطاب العربي.

ويمكن لأي متفكر ومتبصر أن يرى الحال التي صرنا اليها، على الرغم من كلّ المشاريع الايديولوجية التي تعلقنا بأهدابها حيناً من الدهر، وتركتنا نلتفت الى الماضي " كزمان " والى الخارج " كمكان " بحثاً عن نافذة.

لست في معرض التبشير لفكر قادم، أوالترويج لمنتج جديد، ولكنني أرى أن مثل هذه الفرصة يجب ألا تضيع، حيث تتوافر للابداع أكثر من نافذة مفتوحة على بوابات العالم، وكما لايسلم اي مشروع من نقد، فان أمام المدارس المستقلة تحديا كبيرا في معالجة عقبات النقلة الكبيرة بين اتجاه جديد، وآخر مألوف، فالفكرة الجديدة لا تطرد القديمة بالضرورة.
ولكن تبنى أي فكرة مهما كانت صائبة لن تؤتي أكلها الا اذا توافّر لها عامل مهمّ، هو الاخلاص، الاخلاص الذي نحتاجه جميعاً

عيسى الشيخ حسن
eassash@hotmail.com